

العنوان:	علم النفس وصلته باللغة والأدب والاجتماع
المصدر:	صحيفة دار العلوم - الإصدار الثاني
الناشر:	جماعة دار العلوم
المؤلف	خلف الله، محمد
الرئيسي:	
المجلد/العدد:	س 4, ع 3
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1938
الشهر:	يناير
الصفحات:	19 - 22
رقم MD:	165063
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	AraBase
مواضيع:	اللغات، علم النفس، البحوث النفسية، تعليم الاطفال، النمو اللغوي، النقد الادبي
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/165063

علم النفس

وصلته باللغة والأدب والاجتماع

لأستاذ محمد خلف الله

المدرس بالجامعة المصرية

— ١ —

مقدمة

هذا الموضوع — على طرافته — حلقة من سلسلة مباركة ، بدأها من قبل أساتذتنا وإخواننا في علم النفس ، فذلّوا بها صعوبة الأداء اللغوي ، ومهدوا فيها طريق التأليف . وقد اجتمعت لدىّ فيه طائفة صالحة من الأبحاث (في كتاب معد للطبع) رأيت أن أقدم بعض نواحيها إلى قراء صحيفة « دار العلوم » جاعلاً نصب عيني غرضين أساسيين :

الأول : أن أساهم في التعريف بنظم الدراسة النفسانية وتطبيق الصالح منها في دراساتنا وأبحاثنا المصرية

والثاني : أن أقوم بنصيبي في خدمة اللغة العربية من تجديد في دراساتها ، وتوسيع لثروتها ، وتحديد لمصطلحاتها ، حتى تقوم بوظيفتها في الأبحاث العلمية الحديثة على الوجه الأكمل ، وحتى تتمشى وروح الدقة في العصر العلمي الحاضر وقد آثرت فيما كتبت أن أدع الناحية التاريخية جانباً ، وأن أقتصر على أحدث ما وصل إليه علم النفس ، لأعرض منه صورة لطيفة ، يلذها المرء والقارىء ويجد فيها جمهورنا المثقف عوناً على تتبع الحركة الفكرية في الممالك الراقية . وأنا في هذا أتبع نموذجاً في البحث والتأليف لفت نظري كثيراً أيام دراستي في الخارج وعلى الأخص في إنجلترا ، إذ وجدت القوم يتجهون إلى الأمام دائماً فيما يفكرون

ويعملون ؛ فهذا المؤلف ينقد رفيقه ، وذلك الباحث يبنتدي من حيث انتهى أخوه ، وهكذا يتناول القوم تراثهم العلمي فيزيدون فيه ، وبينون كما بنت أوائلهم ، ويجمعون في طريقهم بين الاستمرار والتجديد

هذا وقد خصصت الأجزاء الأولى من البحث لنمو اللغة وترقى الفكر عند الطفل ، وعلاقة كل ذلك بمقدار الذكاء عنده ؛ وهذا منزع حداً بي إليه الميل الأدبي الذي أشربته منذ الصغر ، والدراسة اللغوية التي تيسرت لي قبل تخصصي في علم النفس ؛ وكان مما شجعني على سلوكه أن رأيت الأبحاث النفسانية الحديثة (وقد جعلت ميدانها التصرف الغائي) ، واللغة بعض ذلك التصرف ، بل عنوانه (ترجمانه) قد ولجت على اللغة أبوابها ، وأوغلت في كشف أسرارها على أساس علمي تجريبي ، فأصبح عالم فقه اللغة ، وعالم النقد الأدبي ، يعتمدان على النتائج التجريبية لعلم النفس فيما يقرران من نظرية أو يسوقان من برهان . وهذا دين قام يوفيه علم النفس الحديث للغة ، قديماً أذاع الشعر والقصص كثيراً من أسرار النفس ، وأمدًا الفلاسفة والنفسانيين بالمادة التي ارتكزوا عليها في دراساتهم ، وقديماً أسدى علم النقد الأدبي إلى علم النفس أيادي حجة بما هدّب من استعمال الألفاظ ، وحدد من مدلول العبارات التي كان يستعملها العلماء في التعبير عن النفس وأحوالها ، والعقل وتجاربه ، والتصرف ومظاهره . ولهذا كان إذا ذكر علماء النفس بالمعنى العام دخل فيهم الشعراء والروائيون والكتاب

وقد ظل هذا القران بين الأبحاث النفسية الأدبية ، والأبحاث النفسية العلمية ، ردحاً من الزمن ، حتى أخذت الدراسات الطبيعية قلبها العلمي المضبوط ، وسرى الأثر منها إلى دراسات النفس ، فأصبحت فرعاً يدرس لذاته ، ونشأ بينه وبين القرن القديم جفوة وبعاد . هذا التناهي لم يكن منه بد ، فان الباحث العلمي الذي يحاول أن يصل إلى قواعد وقوانين عامة للتجارب ، مضطر أن يضع فروضاً ونظريات ، وأن يزن الألفاظ بميزان حساس ، وقد يغلو في ذلك فينقلب علاجه للموضوع أبحاثاً نظرية جدلية ، لا تدنى من فهم الطبيعة الانسانية ، وإنما تباعد

عنه ، وتخرج بعلم النفس عما قال فيه ابن رشد : « وعلم النفس أغمض وأشرف من أن يدرك بصناعة الجدل » هكذا كانت الحال في القرن الماضي حين كانت الأبحاث النفسانية إنما يقصد منها شحذ القريحة والتفنن في ضروب الحجج ، والمهارة في التفريع والتدقيق ، على أن ذلك لم يدم طويلا ، فقد بدأ الناس يدركون أن هذه النظريات النفسانية على ما بينها من تناقض وخلاف ، ممكنة التطبيق في الحياة العملية ، فطبق بعضها ونجح ؛ وانصرفت همه الكثيرين من الباحثين إلى ما يسمى الآن علم النفس التطبيقي ، وأصبحت ترى حتى علماء الأدب وفقهاء اللغة يغشون حدائق هذا العلم ليقطفوا منه ما يعينهم على فهم التجارب والآراء الانسانية ولست في حاجة أن أتوه هنا بما لعلم النفس الآن من منزلة في الشعوب المتحضرة فقد أصبح عماد المربي ، وقوام التاجر ، وسلاح السياسي ، وعدة الطبيب ؛ وأصبح القوم يعتبرونه المحور العام للدراسات الانسانية ، عليه تعتمد هذه الدراسات ، وفيه تجد أساسها الذي ظلت تنشده زمناً طويلا ، ولئن كان القرن التاسع عشر قد اصطبح في تفكيره بصيغة علوم الحياة ، إن القرن الحاضر ليعتبر عصر العلوم الانسانية ، ففيه تحررت هذه الدراسات من ربة النظريات الفلسفية ، وأخذت تدنو رويداً من حظيرة العلوم الحديثة ، حتى أصبح العمل والقياس والتجربة دعائم أبحاثها ، وحتى أصبحت الفلسفة ربيبتها ونهايتها لا مصدرها وبدايتها هذا التحول الكبير في وجهة النظر العالمي يدرکه كل من درس الفلسفة أولا ، واصطدم بنظرياتها وأغازها حتى تشعبت به السبل واختلطت عليه الموارد فراح يبغي نجوته في فرع كعلم النفس مبني على المشاهدة والقياس ، ولقد قدر لي في ثمانى السنوات التي قضيتها في أوروبا أن سلكت هذه السبيل ، فدرست الفلسفة وفروعها من علوم نفس واجتماع وسياسة ومنطق وأخلاق وجمال وإلهيات ، فما إن قطعت شوطاً حتى وجدتني أميل إلى التخصص في ناحية واحدة هي ناحية علم النفس ، فدرسته عملاً وتجربة فوق دراسة البحث والنظر ، ثم اخترت من ميادينه الواسعة ميدانين : سيكولوجى اللغة ، ونفسانية الأطفال

فوهبتها معظم جهدى وزمنى ، وقضيت حوالى السنتين متنقلا فى المدارس الابتدائية أدرس الأطفال فى منطقتهم وتفكيرهم ، ثم دونت بعض النتائج فى رسالتى التى قدمتها لدرجة الماجستير من جامعة لندن

هذه الدراسة الشخصية التى قمت بها هى التى عنيت الآن أن أنقلها إلى القارىء فى ثوب عربى ، وحرصت أن أجعلها صورة متحركة للطفولة من مهدها إلى رشدها ، وقرنت فيها النتائج بمصادرها ، حتى يسهل على إخوانى المربين وطلبة الفلسفة وعلم النفس واللغة ، تتبعها فى مواطنها والاستزادة منها ؛ وسأتناول فى المقال التالى طرق الدراسة النفسانية التى ستتكرر الإشارة إليها فى نقاط البحث ، إن شاء الله .

محمد خلف الله